

الباب السادس

التربية الأدبية في عهد الإصلاح الديني

إن النهضة الأوروبية التي ابتدأت في القرن الثالث عشر ودرجت في سبيل التقدم إلى القرن السادس عشر، أيقظت العقول وبعثت فيها روح النقد الذي شمل جميع وجوه الحياة ولا سيما الدينية منها ، فانكشف بذلك في الكنيسة الأرثوذكسية معائب طالما سترها الجهل في القرون المظلمة .

من هذه المعائب تلك المسالك الغريبة التي انتهجها البابوات في جباية الأموال ، فإنهم ابتدعوا صكوكاً للغفران يبتاعها الناس لتعفيهم من عقاب الكنيسة ، قهافت الغنى والفقير على شرائها و بذلوا فيها المال عن سخاء ، وفهم العامة وقتئذ أنها تعفى من عقاب الكنيسة وعقاب الآخرة معاً ؛ فكان ذلك مغرياً لهم بالفساد ، ومشجعاً على ارتكاب الخطايا التي يكفي في غفرانها على ما يعتقدون ابتياع صك أو صكين بدراهم معدودات . ومما زاد الطين بلة أن المال الوفير الذي جمعته الكنيسة من هذه الطرق ومن غيرها لم ينفق جميعه في وجوه دينية مشروعة ، بل عبث به بعض البابوات فأنفقوه في مطاعمهم الشخصية ومآربهم السياسية . ومن هذه المعائب أيضاً رغبة البابوات في السياسة الدنيوية وانصرافهم عن أمور الآخرة .

فَطَنَ الناس لمعائب الكنيسة الأرثوذكسية فمقتوا نظمها ، ورأوا ضرورة القيام بعمل يصلح من أمرها ويسير بها في النهج الواضح القويم . لذلك هبَّ دعاة الإصلاح إلى العمل ، ولم يكن من قصدهم في أول الحركة أن يهدموا النظام القديم جملة ، ويستبدلوا به النظام البروتستنتي الذي أنتجته الحركة في آخر الأمر ، وإنما أرادوا أن يجعلوا إصلاحهم مؤسساً على نظام البابوية وبقائها ، ولكن الكنيسة من مبدأ الحركة أنكرت عليهم عملهم ، ودبرت الحيلة لإحباط مساعيهم ، وقاومت كل جهد بذلوه في سبيل الإصلاح ، وقد وجدت من ثروتها الطائلة وكثرة أتباعها نصيراً أي نصير، غير أن

ذلك لم يجد لها نفعاً ، بل قُال من عطف الناس عليها ، وأثار أحقادهم على البابوية ونفوذها ، وساعد على انفجار الثورات في بقاع كثيرة من أوروبا الشمالية ، فنبت كثير من الناس تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية ، وانجلى الأمر عن تأسيس كنائس مستقلة تعمل بالعقائد البروتستنتية . ولقد كانت الثورات القائمة في ممالك أوروبا الشمالية يختلف بعضها عن بعض في المقاصد والأغراض ، إلا أن النهضة الأوربية التي أيقظت العقول وبعثت فيها روح النقد كانت عاملاً مشتركاً بينها كما كانت أكبر داعٍ إليها جميعاً .

رجال التربية في عهد الإصلاح الديني

أنتجت حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر عدداً وفيراً من أئمة التربية وقادة الرأي فيها ، وسر ذلك أن زعماء الحركة رأوا أن تربية النشء هي خير وسيلة للحصول على الإصلاح الذي ينشدونه ، فوجهوا عنايتهم إليها واشتغلوا جميعاً بمباحثها ، وفكروا في أغراضها وأساليبها ، ووضعوا ما رأوه نافعاً من مناهج التعليم ونظمه ، فأصبحوا بذلك من كبار المربين الذين يهتدى بهديهم ويرجع في التربية إلى آرائهم . ولقد اشتهر من بينهم عدد كبير ، منهم إِرَزْمُس الهولندي ، وتُومَس مور الإنجليزى ، ومَرْتِن لُوتِر ومَلِكْتُون الألمانى ، وكاثُرن الفرنسى ، وزُونجلى السويسرى .

وبجدر بنا أن نجمال للقارىء تراجم بعض من هؤلاء الرجال ليطلع على آرائهم في التربية ، ويقف على أهم نظريات الفن في ذلك العصر .

مَرْتِن لُوتِر

هو بطل المصالحين وعمدة المربين في هذا العصر . ولد في بلدة إيزلين من أعمال سكسونية عام ١٤٨٣ ، وتربى تربية صالحة فدخل المدارس وانتقل إلى الجامعات واغترب من علوم الدين والقانون . ولما أتم دراسته سافر إلى رومة سنة ١٥١١ ، فأقام بها عامًا واحدًا وقف فيه على مخازى الكنيسة والمدينة ، ثم عاد إلى وِيتِنبرغ مملوءًا غيرة وحماسة ، وهنا ابتدأت حركته في الإصلاح الدينى ، إلا أن مسافة الخلف لم تتسع

بينه وبين الكنيسة إلا عام ١٥١٧ ، حين أرسل البابا « ليو العاشر » أحد الرهبان إلى سكسونية بمحملة من صكوك الغفران ليبيعهما للناس على ما أسلفنا ، فقد عدها لوثر مخزاة من مخازي الكنيسة وأخذ يحاربها جهاراً ، فثار حقد البابا عليه وعده زائغاً عن الكنيسة وحرّمه التمتع بقوانينها ، فلم يزد بذلك لوثر إلا اندفاعاً في حركة الإصلاح وميلاً إلى تربية الجمهور بما يترجمه من كتب الدين وما يكتبه من مقالات التربية . وقد عمد في بادئ الأمر إلى إيقاظ عقول العامة



مرتن لوثر

وتحريك عواطفهم بترجمة الكتاب المقدس ونقله من اللغة الإغريقية إلى اللغة الانجليزية ، فتم له ذلك بلغة سهلة واضحة توافق العصر الذي وجد فيه . وكانت هذه الترجمة أكبر مساعد على تقدم التربية في هذه الآونة ، فإنها استمالت الناس إلى القراءة وبعثت فيهم روح التفكير . ثم أتبع ذلك بمقالات ورسائل ضمنها آرائه في نظم التربية وأساليبها .

وليس هناك أبلغ في إيضاح آرائه هذه من كتابه الذي بين فيه طرق الإصلاح في المدارس المسيحية ، ووجهه إلى ولاية الأمور في جميع المدارس الألمانية سنة ١٥٢٢ . ولا تقل عن ذلك خطبته المشهورة التي أبان فيها وجوب إرسال الأطفال جميعاً إلى المدارس .

آراؤه في أغراض التربية ونظمها

يذهب لوثر إلى أن الغرض من التربية هو ترقية حال الأمة والكنيسة معاً ، ولن تقوم المدرسة عنده بواجبها حتى تخرج رجالاً أتقياء يعملون على نصرة دينهم وحماية أوطانهم . ومن أجل ذلك يرى أن من واجب الحكومة أن تنفق على معاهد التربية من بيت مالها ، وأن يتمتع كل من يتربى في هذه المعاهد بهذا الإنفاق ، لا فرق بين

غنى وفقير ، ولا بين رفيع ووضيع ، ولا بين ذكر وأنثى ، وعلى السلطة المدنية أن تسن من النظم ما يُرغم الآباء على إرسال أبنائهم إلى المدارس ولو كانوا كباراً . ولما رأى «لوتر» أن كثيراً من الأبناء ولا سيما كبار السن منهم قد يتعذر عليهم أن يدخلوا المدرسة ويواظبوا على العمل فيها ، لاشتغالهم بحرفة يكسبون منها قوتهم ، أو لرغبة آبائهم أن يبقوهم معهم لمساعدتهم فى أعمالهم احتاط لذلك وقال : على كل صبي وشاب أن يحضر المدرسة ساعة أو ساعتين من النهار ، ثم يذهب بعد ذلك الى عمله الخاص فى بيته أو مصنعه أو حانوته . وبذلك تمتشى الدراسة والعمل لكسب القوت جنباً إلى جنب .

آراؤه فى مناهج الدراسة

كان «لوتر» بطل الإصلاح الدينى فى شمالى أوربا ، ولذلك كان فى مقدمة الذين يدعون إلى التعليم الدينى ، ويعدون الكتاب المقدس وأصول الدين أهم مواد الدراسة . ولما كان مع ذلك من رجال النهضة الأوربية رأى رأيهم ، فأشار بدراسة اللغات الإغريقية واللاتينية والعبرية لأنها مفاتيح الحضارة القديمة ، ولأنها تعين على فهم الكتب المقدسة ، وقد أوصى بدراسة علم المنطق وفنون البيان وتمارين النشء على النطق الصحيح الفصيح الخلاب ، فقد كانت هذه الفنون ذات مكانة عالية فى أيامه ، إذ كانت أيام جدال ومناظرات . ومن الموضوعات التى رأى ضرورة إدخالها فى مناهج الدراسة وبالغ فى بيان منافعها ، التاريخ والغناء والموسيقى والرياضة البدنية ، أما التاريخ فقد قال عنه : « إنه فضلاً على نفعه فى شرح الحقائق الخلقية يعين الطلاب على فهم النظم الاجتماعية التى يرونها ويسمعون بها فى كل وقت وحين » . أما الغناء والموسيقى فانهما وسيلتان لشرح الصدور وإذهاب الحزن عن القلوب . وأما الرياضة البدنية فلأنها ذات أثر جليل فى تقويم الجسوم وتقوية العقول .

آراؤه فى طرق التدريس

كان للوتر آراء سديدة فى طرق التعليم وأساليبه ، فقد أشار بوجوب الانتفاع بما فى الأطفال من النشاط الطبعى ، ونهى عن إخضاع ما فيهم من الميل الغرزى إلى الحركة تاريخ التربية (٣٠)

والعمل ، وأوصى باستخدام المحسّات في التعليم والإكثار من ضرب الأمثلة ما استطاع المعلم الى ذلك سبيلاً . ومن آرائه في تعليم اللغة أن تفوق عناية المربي بتمرين الطفل على النطق الصحيح عنايته بدراسة القواعد .

مفادته بأفكار المعلمين

قال لوثر : «لولا المعلمون ما رأينا بين ظهرانينا واعظاً ولا فقيهاً ولا كاتباً ولا طبيباً ولا حكيماً ، فهؤلاء جميعاً غرس المعلم وثمره أعماله وجهوده . إن المعلم النشيط الذي يخلص في العمل ، ويراقب الله في واجبه ، ويبذل قوته ويرضى ضميره في مهنته لا تستطيع مكافأته ، وكل مال يغدق عليه وإن كثر ضئيل في جانب أياديه علينا ومعروفه فينا . ولقد أحسن أفلاطون وهو وثني الفضل الذي يُسَدَّى الى الأمم على أيدي معلمها ، فأعلى مكانتهم ورباً بجهدهم أن يفي به شكرٌ أو يكفي في المجازاة عليه مال . ولكننا - والأسف ملء قاي - نغض منهم ونعرض عنهم وننظر اليهم في المجالس شزراً ، ثم ندعى بعد ذلك أننا من أمة لها مدنية ودين . لو أني أكرهت على مغادرة الوعظ والإرشاد وطلبت إلى أن أتمس عملاً آخر لم أجد عملاً أحب إلى نفسي من تهذيب الأحداث ، فإنني أراه أنفع شيء بعد الوعظ ، على أن الشك كثيراً ما يغلبني على قاي فلا أدري أي المهنتين أشرف وأنبل .

إنك يا صاح لن تستطيع أن تجد فوق الأرض فضيلة أسمى من تلك التي تراها في رجل غريب عنك حين يجلس الى أولادك ، فيعالج نفوسهم بأنواع التسايب ، ويقوّمها بصنوف التهذيب ، متخذاً من صبره معيناً ، ومن إخلاصه نصيراً ؛ ذلك عمل قلما يبذله الآباء لأبنائهم وهم أقرب الناس اليهم ، وأشدّهم حباً وعطفاً عليهم .

آثار آرائه في المدارس

وقعت آراء «لوثر» ونصائحه في التربية موقعاً حسناً عند كثير من الناس ، ولم تلبث طويلاً حتى أدخلها أتباعه والمعجبون به في مدارس ألمانيا . فبعد سنة واحدة من نشر كتابه الذي وجهه الى ولاية الأمور في المدن الألمانية ، طلب الكونت « مَنسفيلد » الى

المصالحين البروتستانتين أن يؤسسوا في « إيزلين » مدرسة بحيث تكون في مناهجها ونظمها وطرق تدريسها جارية على النمط الذي أشار به لوثر، فأذعنوا للأمر وكان زعيمهم في ذلك المربي الكبير « فيلب ملنكتون »

فيلب ملنكتون (١٤٧٩ — ١٥٦٠)

هو المربي الذي ذاع صيته في طول البلاد الألمانية وعرضها. وهو الذي شمل إصلاحه كل معهد من معاهد التعليم في هذه البلاد حتى لم تبقى عند مماته مدينة من المدن الألمانية إلا وقد تم لها إصلاح مدارسها على النحو الذي رسمه وأرشد إليه، كما لم تبقى إذ ذاك مدرسة ألمانية ذات شأن إلا كان بين معلميها واحد أو أكثر من تلاميذه ؛ فلا عجب إذاً أن أكبره الألمان ولقبوه بمعلم ألمانيا ومربيها .

ولقد كانت مدينة « وِتنبرغ » المركز الذي انبعث منه نور إصلاحه مصحوباً بنور رفيقه لوثر، فقد أقام ملنكتون في جامعته اثنتين وأربعين سنة يعمل ويصلح حتى مات ، وكانت هذه الجامعة أول جامعة دخلها إصلاحه ، فأخذت صبغة أدبية بروتستنتية حاكمتها فيها جامعات أخرى كثيرة في ألمانيا الشمالية ، ثم صارت هذه الجامعة فيما بعد نموذجاً لكل جامعة جديدة أسست في هذه المملكة .

ولما استفاضت شهرة هذا البطل وسار الركبان بأخباره ، نسل إليه الطلبة من كل حدب ، وأقبلوا آلافاً مؤلفة إلى جامعة « وِتنبرغ » حتى إذا اقتبسوا من نوره رجعوا حاملين آراءه ومبادئه فنشروها في كل مكان أقاموا به وعلموا فيه ؛ وكان أمراء القاطنات الألمانية إذا أراد أحدهم أستاذاً لجامعته أرسل إلى هذا المصلح العظيم فاختر له واحداً من تلاميذه ، وكذلك كان الحال إذا أراد أولو الأمر في مدينة من المدن رئيساً يدير شئون مدارسها ويسوس أمورها . ومما لاخلاف فيه أن العدد الأكبر من مشهورى المربين في هذا العصر كنيندر ، وترندندر ف كانوا من تلاميذه والآخذين عنه . ولم يكن الفضل في صلته بمدارس ألمانيا جميعها راجعاً إلى تلاميذه فحسب ، فقد كان يكثر من زيارتها ومراسلة القائمين بشئونها في كل ما يراد إدخاله فيها من وجوه الإصلاح ؛

هذا إلى كتبه النافعة في فروع الدراسة المختلفة ، فقد ألف في السادسة عشرة من عمره كتاباً في قواعد اللغة الإغريقية صار فيما بعد كتاباً مدرسياً شائعاً في كل المدارس الألمانية، ثم أتبع ذلك بتأليف كتاب آخر في قواعد اللغة اللاتينية فكان له من الشهرة ما كان لسابقه ، وله في المنطق والبيان والتاريخ والأخلاق والطبيعة مؤلفات نافعة مستعملة في المدارس الابتدائية . أما مؤلفاته الدينية فقد كانت معروفة بين طلاب الجامعات البروتستنتية والمدارس العالية .

ولما طلب إليه أمير سكسونية أن يضع نظاماً خاصاً للتعليم في قطيعته ، وضع نظاماً يقضى بتأسيس نوع حديث من المدارس سماها المدارس اللاتينية ، وطلب ألا تخلو قرية أو مدينة في قطيعة سكسونية من مدرسة تسير على هذا النظام ، وقد جعل الدراسة فيها ضيقة الدائرة قليلة المواد ، فقد رأى ألا يدرس فيها سوى اللغة اللاتينية والدين ، وحذر المربين فيها ألا يثقلوا كواهل الأطفال بالإكثار من فروع الدراسة كما كانت الحال قديماً ، وأوجب قسمة التلاميذ في هذه المدارس إلى فرق ثلاث يختلف فيها التعليم على حسب اختلافهم في القوة والعلم . ولما ارتقت هذه المدارس فيما بعد بارتقاء مناهجها صارت معاهد الدراسة العالية في الآداب والفنون .

جُنْ كَلْتْن (١٥٠٩ — ١٥٦٤)

ولد « كَلْتْن » في بلدة « نوايون » من أعمال « بيكارديه » بفرنسا ، وتربى تربية حسنة ودرس القانون والدين دراسة متقنة ، ولم يقنع كغيره بالطعن على العقائد الكاثوليكية ، بل عزز آراءه بوضع كتاب في قواعد الدين المسيحي ، ويثني فيه منهجه لإصلاح الدين . ولما رأى حقد ملك فرنسا إذ ذاك على جماعة البروتستنتين نزح إلى سويسرا حيث ساعدته الأحوال السياسية في هذه البلاد على نشر مبادئه وآرائه . وقد أنفق أكثر أيامه في المناقشات الدينية ، ولم تلجئه عنايته إلى التربية والبحث في مسائلها إلا في السنوات الأخيرة من حياته ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يقوم بأعمال كثيرة فيها ، فقد أسس مدارس المشهورة المنسوبة إليه في « جنيف » وغيرها من أمهات المدن ، وهي

لا تختلف كثيراً عن المدارس اللاتينية التي سبق لنا الكلام فيها .



كَلْبَن

ولما اتسعت دائرة أعماله في التربية دعا إليه معلمه « كُرْدِرَيْس » الفرنسي ورغبه في المجيء إلى سويسرا ليشغل معه بالتعليم في المدارس التي أصاحها، وليساعد في إتمام تنظيمها وترتيبها، فنجح في استمالته . جاء إليه ذلك المربي العظيم وكان من أجل أعماله أن ألف كتباً أربعة في المحاورات قصد من وضعها أن يتعلم التلاميذ اللغة اللاتينية تعلماً يقدرهم على الكلام بها بسرعة وسهولة ،

وأن يكون ذلك من طريق المحادثة والمحاورة في موضوعات عصرية شائعة .

هذا وقد أخذ التعليم في المدارس الكاثوليكية صبغة دينية أدبية . وقد كانت إحدى مدارسها في « جنيف » مقسمة إلى فرق سبع يعلم فيها الدين والآداب ، وكان تلاميذها يبتدئون بتعلم الدين واللغة اللاتينية ، حتى إذا وصلوا إلى السنة الرابعة ابتدءوا دراسة اللغة الإغريقية . وفي فرقها العالية كانوا يدرسون المنطق وفنون البيان . وقد انتشر هذا النوع من المدارس بسرعة في كثير من مدن سويسرا وفرنسا وإنجلترا بين الطوائف البروتستنتية .

زُونْجَلِي (١٤٨٤ - ١٥٣٢)

كان زعيم الإصلاح في سويسرا ، وكانت إحدى غاياته في الإصلاح إضمار التربية وترقيتها . أسس جملة من معاهد التعليم الأدبي في سويسرا ، وكان له الفضل في إدخال المدارس الابتدائية في هذه المملكة ، وقد نشر مقالاً في التربية الدينية بين فيه الطريق القويم في تعليم الأحداث وتربيتهم تربية مسيحية ، وضمنه منهج الدراسة الذي ارتضاه ، وهو لا يختلف كثيراً عن منهج « لوتر » إلا في أنه أهمل التاريخ وذكر في مكانه الحساب والمساحة ، وربما أتى هذا التغيير من ميله المعروف إلى تفضيل الفنون العملية على الفنون النظرية .

الإصلاح الكاثوليكي

جماعة اليسوعيين

أجلنا فيما سبق لنا ما قام به المصلحون البروتستنتيون في سبيل إنهاء التربية وترقية شئوننا ، ويجدر بنا الآن أن ننظر إلى الوراء قليلاً لنرى مجهود الكنيسة الأرثوذكسية في هذا السبيل إبان الثورة البروتستنتية .

في حياة « لوتر » و بعد مماته كان للكنيسة الأرثوذكسية أنصار يعملون على توطيد أركانها وإصلاح ما فسد من أمورها ، مع إبقاء نفوذ البابا وسلطانه والمحافظة على الرابطة التي تربطهم به . وقد رأى الكاثوليكيون عامة أن من واجبهم فوق ذلك أن يقوموا زرع البروتستنتيين وأن يردوا إلى كنيستهم من خرج عنها من رجال ونساء ، فقامت من أجل ذلك حروب دينية بين الفريقين أظهر فيها كل فريق منتهى أعمال القسوة والفظاعة من قتل وتعذيب وتمثيل ، غير أن هذه الحروب لم تجد الكاثوليكيين كثيراً ، فعمدوا إلى وسائل أخرى كان أكثرها نفعاً تكوين تلك الجماعة التي سموها « جماعة اليسوعيين » ، فقد عززت مواقفهم وأيدتهم أي تأييد .

ألف هذه الجماعة زعيمها « لويولا »^(١) في سنة ١٥٣٤ ، وذلك أنه استمال إليه ستة من الطلبة وعاهدوا على أن يهبوا نفوسهم جميعاً لهداية الوثنيين ومؤازرة البابا وتأييد سلطانه ونفوذه ، إلا أن هذه الجماعة لم تصادف من الناس إقبالاً في بدء أمرها ، ولم يأبه لها أحد في سنواتها الأولى ، ولكن لم تمض السنة السادسة من حياتها حتى أحس الناس جليل نفعها ، فاعترف بها البابا ، وأسرع الناس إلى الانتظام في صفوفها وأخذوا جميعاً يعملون على تحقيق أغراضها ، فعولوا أولاً على جهود المرسلين المبشرين في نشر الدين المسيحي الكاثوليكي في أرجاء المعمور ، ثم عمدوا بعد ذلك إلى تأسيس المدارس والمعاهد العلمية ، واتخاذها وسائل لتربية التلاميذ على الطاعة والإخلاص للبابا .

(١) هو إجنات لويولا أحد الفرسان الأسبانيين ، ولد سنة ١٤٩١ وتوفي سنة ١٥٥٦ ، وقد جرح في إحدى الوقائع ، فعرف مدة مرضه في مطالعة الكتب الدينية ، فتمكن حب الدين من قلبه ، وعزم على أن يهب البقية الباقية من حياته لخدمة الدين .

ولم يكن من أغراض هذه المدارس أن تقتصر على تربية من يرتبط بهذه الجماعة فحسب، أو أن تجعل أعمالها مقصورة على التربية الدينية، وإنما كانت ترمى إلى تربية الشبان تربية عالية من غير تمييز بين فريق وفريق، كما كانت تقصد إلى تربية عامة من جميع وجوها. وقد أكسبهم ذلك نجاحاً عظيماً فأقبل ألوف الطلبة إلى مدارسهم، ونزح إليهم كثير من طلبة المدارس البروتستنتية.

لم تكن جماعة اليسوعيين بالتربية الابتدائية كثيراً ولا بتربية الطبقة الدنيا من الناس، ومن عرف أغراضها لا يعجب لذلك، فقد كانت ترمى إلى تكوين أبطال وزعماء يقودون الناس إلى نصرة دينهم، ولذلك وجهت كل عنايتها إلى التربية العالية. وقد أسست نوعين من المدارس عرف أحدهما بالمعاهد الراقية، والآخر بالمعاهد غير الراقية، فالأولى تشبه الجامعات ومدارس العلوم الدينية المعروفة عند البروتستنتيين، والثانية أشبه شئ بالمدارس الثانوية أو بمدارس الآداب والفنون. وقد كان من مبادئ هذه الجماعة ألا يشرعوا في إنشاء مدرسة حتى تجمع لها الإعانات الكافية والهبات الجزيلة التي تضمن حياتها وتساعد على نجاح التعليم فيها. وقد كثر التعليم فيها بالمجان، فكان ذلك من أسباب فوقها على ما يماثلها من المدارس البروتستنتية وكذلك المدارس البلدية.

انتشار مدارس اليسوعيين

في الربع الثاني من القرن السابع عشر كثرت مدارس اليسوعيين حتى بلغ عددها ٣٧٢ مدرسة. وفي أول القرن الثامن عشر زاد العدد إلى ٦١٢ مدرسة، وبعد منتصف هذا القرن بقليل وصل العدد إلى ٧٢٨ مدرسة.

أما عدد الطلبة في هذه المدارس فيدل دلالة واضحة على ما صادفته من النجاح، ففي المدارس الكبيرة كان العدد يزيد على ألفي طالب في المدرسة الواحدة. وكان عدد الطلبة في المدارس التابعة لدائرة باريس يُربى على ١٣ ألفاً، وفي المدارس الوطنية في رومة يبلغ ألفين. وفي وقت انطفاء جذوة هذه الجماعة بلغ عدد تلاميذها جميعاً ٢٢ ألفاً وهب الفريق الأكبر منهم نفوسهم لأعمال التربية والتعليم.

نظام المدارس اليسوعية

إن قوة النظام في مدارس اليسوعيين وإحكام إدارتها كان من أسباب نجاحها وبلوغها تلك الغاية التي وصلت إليها . كانت إدارة هذه الجماعة في كل أدوار حياتها أشبه شيء بالإدارة العسكرية ، ولا عجب : فقد كان زعيمها ومؤسسها « لويولا » في بدء حياته جندياً ، وكان يعتقد كغيره من الجنود أن لا نجاح لنظام من النظم ما لم تكن الطاعة العمياء للرئيس إحدى دعائمه . ولذلك جرى نظام هذه الجماعة من بدء تكوينها على أن يكون لها قائد عام يسيطر على جميع شئونها جميع حياته ، وله النفوذ المطلق والسيطرة العامة والكلمة التي لا تراجع . ولما اتسعت أعمال هذه الجماعة وسرى نظامها إلى كثير من البلاد الأوربية ، قسمت هذه البلاد إلى أقاليم يدير شئون الجماعة في كل منها مدير يختاره القائد العام ليشغل منصبه ثلاث سنوات لا غير . ويعمل تحت إشراف هؤلاء المديرين رؤساء المدارس ، فقد كان كل رئيس خاضعاً لمدير إقليمه وموآخذاً أمامه . واختيار رؤساء المدارس من حقوق القائد العام وحده فهو الذي ينتخبهم لمدة ثلاث سنوات أيضاً . ويأتي بعد هؤلاء الرؤساء مراقبو التعليم في المدارس ، والحق في اختيارهم لمدير الإقليم . وعليهم أن يلاحظوا أعمال المدرسين ويزورهم في حجر التدريس مرة على الأقل في كل خمسة عشر يوماً ، وعلى رئيس المدرسة أيضاً أن يزور حجر الدراسة كلما وجد إلى ذلك سبيلاً . والغرض من هذه الزيارات الكثيرة إلزام المدرسين اتباع طرق التدريس ومناهجها التي رُسمت لهم ، ومنعهم من السير على حسب آرائهم وأهوائهم حتى لا تخطئ الجماعة الغاية التي قصدت إليها من التعليم .

وقد أوجب قانون اليسوعيين أن تكون العقوبات في مدارسهم قليلة جداً ، وطلب إلى معلميها أن يفضوا عن كثير من هفوات الطلبة ما لم يروا ذلك الأغضاء وبيل العاقبة ذميم الأثر . أما الذنوب العظيمة فكان جزاؤها العقاب البدني . فإذا تمادي المذنب بعد ذلك ولم تفلح فيه هذه العقوبة ، أغلقت في وجهه أبواب هذه المدارس وحرّم عليه دخولها بَتَّةً . وقد يخطر ببال القارئ أن مبدأ الإقلال من العقوبات لا بد

أن يكون قد أدى إلى انحطاط في سلوك التلاميذ أو إهمال في دروسهم ، ولكننا نقول : إن جماعة اليسوعيين قد وُقِّت إلى وضع نظام بديع للمكافآت ، واهتدت به إلى بث روح التنافس بين التلاميذ على أسلوب لم يعرف من قبل ، فضمن لها ذلك كل ما أمَّله رجال التربية من وراء العقاب . ولنشرح للقارئ ما يستبين به فوق اليسوعيين على غيرهم في نظام المكافآت .

إن المكافآت في المدارس الإنجليزية الحاضرة مثلاً لا تأثير لها في إيقاظ قوى التلاميذ وبث روح التنافس إلا بين الثلاثة أو الأربعة الأول من كل فرقة ، أما الباقون فإنهم لضعفهم ويأسهم من اللحاق بهؤلاء يرون من العبث أن يسابقوهم إلى غاية أو يجروا معهم في مضمار ، ولكنك إذا تأملت نظام المكافآت عند اليسوعيين أعجبتك إحكامه ، فإنهم يقسمون الفرقة الواحدة من التلاميذ إلى طوائف صغيرة ، ويراعون أن يكون أفراد كل طائفة منقار بين في الاستعداد والتحصيل ، ويعينون مكافأة لكل طائفة ، ثم يرسلون الجميع إلى ميادين السباق كخيل الحلبة ، كل طائفة في ميدانها ؛ وهنا يجد الضعفاء والأقوياء مجالاً للمنافسات ، ويطمعون جميعاً في نيل المكافآت .

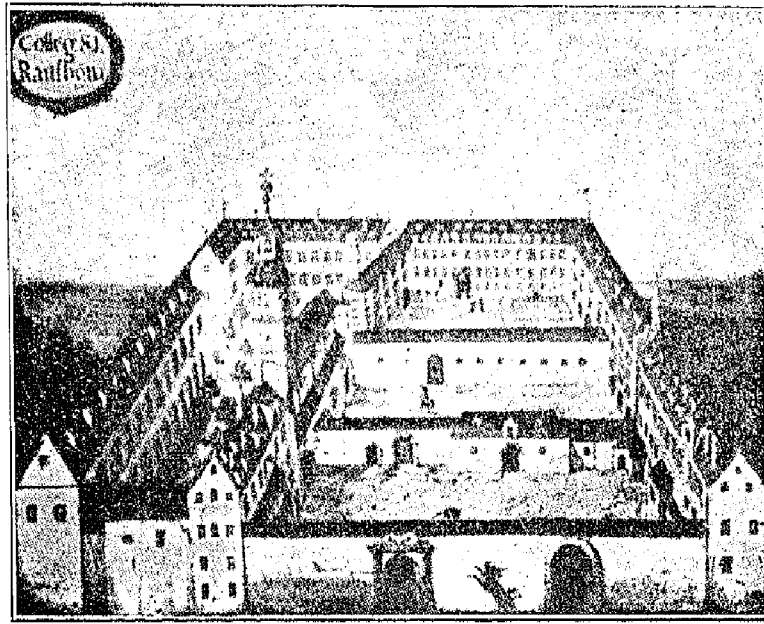
اعداد المعلمين

كانت عناية هذه الجماعة بانتقاء معلمى مدارسها وإعدادهم لمهنة التدريس سبباً آخر من أسباب نجاحها في التعليم . فقد كان لها طائفتان مختلفتان من المدرسين ، أولاهما تختار من بين الطلبة الذين أتموا دراستهم في المدارس الراقية وغير الراقية على حسب مناهج مقيدة محدودة ، وكانت هذه الطائفة تزاوِل مهنة التعليم في مدارس هذه الجماعة قبل أن تنتظم في سلك الحياة العملية ، ويسمى أفرادها بالطلبة المعلمين . أما الطائفة الثانية فهم الأساتذة الدائمون الذين يديرون حركة التعليم ويرسمون خطة التدريس لأولئك الصغار من المعلمين ، وكانوا يختارون من الذين أتموا دراسة المناهج المطولة الوافية المعروفة في الجامعات ، والذين أعدتهم هذه الجماعة لمهنة التدريس إعداداً صحيحاً . وقد كان من الضروري أن يراعى في اختيار هؤلاء الأساتذة قوة ميالهم وحسن استعدادهم لهذه المهنة العالية . ولما كان اختيار طلبة المدارس اليسوعية مبنياً على كرم

الأصول ورقى المدارك ، كان المعلمون اليسوعيون بانتقائهم من بين هؤلاء الطلبة خياراً من خيار . ولذلك تهيأت لهذه المدارس طائفة من الأساتذة والمعلمين قلما داناها في الفضل والعلم أساتذة المدارس المعاصرة .

مواد الدراسة

إن مواد الدراسة في مدارس اليسوعيين تشبه مواد الدراسة عند أنصار الآداب أيام النهضة الأوروبية . وعلى هذا لا نخطئ إذا قلنا إن مدارسهم لم تختلف عن المدارس البروتستنتية المعاصرة لها في موضوعات الدراسة أو في الأغراض التي أريد الوصول



مدرسة ريجينزبرج إحدى مدارس اليسوعيين (١٦٠٠)

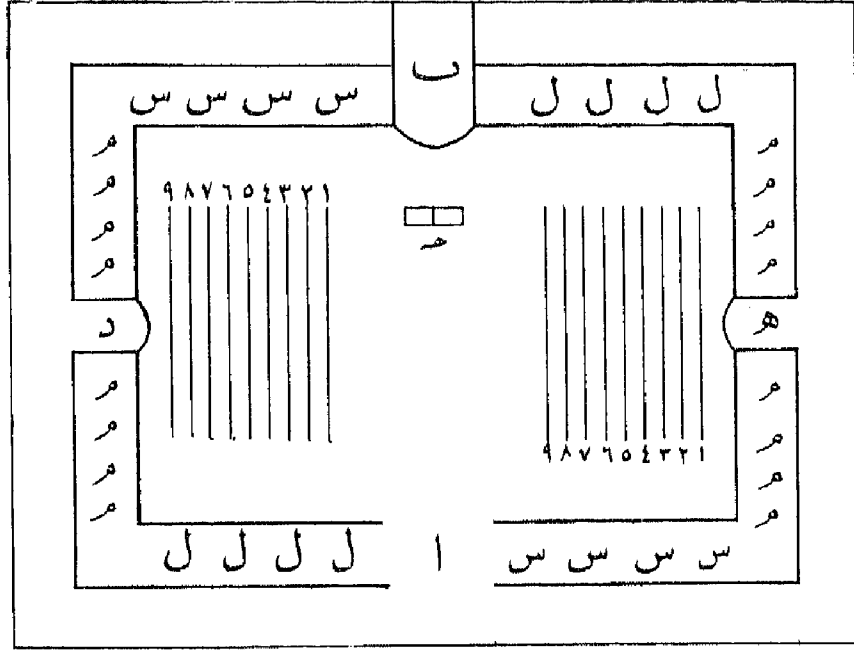
إليها من وراء هذه الموضوعات ؛ فقد كانت عناية اليسوعيين موجهة إلى دراسة قواعد اللغة اللاتينية وآدابها ، ومطالعة ما خطه فرسان البيان في هذه اللغة ، ولا سيما شيشيرون . وأفيد . وترنس . كذلك اللغة الإغريقية ، فقد كان لدراستها شأن في مدارسهم وإن لم تنل من الخطوة لديهم كل ما نالته أختها اللاتينية . ومن المقطوع به أن عنايتهم بالرياضة ومبادئ العلوم الفلسفية كانت تفوق عناية غيرهم بها في المدارس المعاصرة . وقد كانوا يدرسون في مدارسهم العالية كل ما هو مألوف في مناهج الجامعات من الرياضة والعلوم

الفلسفية والفانون والطب وغيرها . أما المدارس الثانوية أو المعاهد غير الراقية فقد كانت مقسمة الى ست فرق (وبعد الى ثمان) خُصَّت الأربُع الأولى منها بدراسة قواعد اللغة اللاتينية ، والخامسة بالآداب ، والسادسة بفنون الفصاحة والبيان .

طرق التدريس

امتازت مدارس اليسوعيين بأمر كثيرة ، أهمها طرقها السديدة في التعليم ، فإنها اهتمت فيه إلى أساليب خاصة كان لها أثر واضح في النهوض بالتربية إلى مكان رفيع ، فمن ذلك اعتمادها على التعليم الشفوي في جميع الفرق المدرسية لا من حاجة إلى كتب الدراسة أو نقص فيها ، فقد كان لأساتذتها عدد غير يسير من المؤلفات النافعة التي لا تزال موضع الإعجاب في كثير من المدارس إلى الآن . ومن ذلك حرصهم على إتقان العمل وتجويزه بمراجعة الدروس الماضية واستعادتها من التلاميذ ، فقد كان المعلم يبتدئ درسه كل يوم بمراجعة الدرس القديم ، ويختتم كل أسبوع بمراجعة كل درس ألقى فيه ، كما كان يختتم كل سنة بمراجعة مواد الدراسة التي تلقاها الطلبة في تلك السنة من أولها إلى آخرها . ولم يقف نظام المراجعة عند ذلك ، بل كان الطالب إذا أتم دراسته ونظَّمته جماعة اليسوعيين في صفوف معلميها ، ابتداءً يراجع كل مادة تلقاها بتعليمها غيره من الطلبة الذين يختار للتدريس لهم . ومن طرائقهم أيضاً تقسيم كل فرقة إلى طوائف صغيرة عدة كل منها عشرة ، يرأسهم واحد منهم ليختبرهم في دروسهم ويراجعها لهم تحت إشراف معلم الفرقة ومراقبته ، ثم يتلو ذلك تقسيم ثنائي ، فيوضع كل اثنين في قرْن ويرسلان معاً إلى ميدان التنافس ، ويكلف كلٌّ ملاحظة أخيه في علمه وسلوكه ، فإذا أخطأ بينَ له خطأه وهداه طريق الصواب ، وبذلك كان كلٌّ يثير في صاحبه النشاط ويستحثه إلى العمل الصالح . وفوق ذلك كانوا في كثير من الأحيان يقسمون الفرقة الواحدة قسمين ينازل أحدهما الآخر في حرب علمية ، ويتنافسان في التحصيل وفهم الدروس . ومن أساليبهم في هذا النزال أن يضع أحد الفريقين للآخر أسئلة يطلب إليه الإجابة

عنها ، وقد يضع أستاذ الفرقة نفسه الأسئلة ويقوم كل فريق ببيان الخطأ الذي يقع في إجابة منافسه .



رسم إحدى حجرات التدريس في المدارس اليسوعية في القرن السابع عشر
(ب) تمثل المعلم (هـ) المرقاة (د) ، (هـ) ، (م) ، (ل) تمثل الطلبة المشرفين .
الخطوط المرقومة تمثل صفوف الطلبة . وحينها يدعى طالب لالقاء درسه أو للإجابة عن
سؤال ، يقوم منافسه في الغرفة من المكان المقابل لمكان الاول فيصلح له خطأه ويجب
عما يعجز عنه .

أضف الى كل ذلك المجامع العلمية المدرسية ، فانها كانت وسيلة من أحسن وسائل
التنافس وأرقاها بين مهرة الطلبة وأذكيائهم في الفرق العالية لاغير وقد شملت موضوعات
المنافسة فيها الترجمة والإنشاء والخطابة والآداب القديمة والتاريخ وغيرها . ولم يكن
الانتساب إلى هذه المجامع جبرياً بل كان بمحض الرغبة والاختيار . يقدم من يشاء
من طلبة الفرق العالية اسمه ، فإذا زكّاه أعضاء المجمع وشهدوا له بالكفاية والاقنذار
أُجيب الى ملتصقه ، فنال شرف الانتماء الى المجمع ، وأصبح عضواً من أعضائه ؛ وكان
ذلك يعد من شواهد فضل الطالب ودلائل رجحانه ونبله .

كان إتقان العمل أهم مبادئهم ، وأقوى دعائم التعليم في مدارسهم ، ومن مآثرهم
في ذلك « قليل مثقن خير من كثير غير مثقن » ، ولذا رأوا الاقتصار على مادة قليلة يتقنها

المعلم إتقاناً ينير شبهتها ويفتح مغلقها ، فلا يترك كلمة واحدة من غير أن تنال حظها من الشرح والإيضاح ، حتى لقد أوجبوا على المدرس أن يقتصر على ثلاثة سطور أو أربعة من كتب الآداب اللاتينية يدرسها في اليوم لتلاميذ الفرق الأولى ، ليستطيع إتقانها بإجادة الشرح وكثرة المراجعة . وبدهى أن طريقهم هذه جعلت التعليم في مدارسهم محدوداً ضيق المناهج ، اذا وُوزن بالتعليم في المدارس المعاصرة ، ولكنه كان متقناً شديد التأثير .

معابرها وانتظت قواها

يجدر بنا بعد هذا البيان الذي أطينا به نظام هذه المدارس ، وذكرنا فيه فضل ما اهتدت اليه من أساليب التعليم ومناهجه ، أن نبين للقارئ كيف انتكشت قواها ووهى بنيانها فتضاءل ذلك المجد الذي كان لها أيام شبابها وقوتها .

إن أكبر مثلبة في هذه المدارس تُرى في قوانينها التي قضت بسلب الأفراد حريتهم وإرادتهم ، فإنها أوجبت أن يخضع الفرد خضوعاً كاملاً للجماعة التي ينتمي إليها ، وأن تخضع تلك للكنيسة ، فأصبح الفرد بذلك مساوب الحرية لا رأى له أمام الجماعة ، وذلك غرض من أغراضهم جرت أساليب التربية عندهم على تحقيقه . ومن ذلك نرى أن اليسوعيين في مبادئهم وأعمالهم قد خالفوا روح النهضة التي سادت البلاد في تلك الأزمان . نعم كانت طرائقهم في التعليم سديدة منقنة ، ولكنها على الرغم من ذلك قد قتلت في المتعلمين روح الابتداع والابتكار ، وعاقبت فيهم نمو الإرادة والعزيمة ، وحالت بينهم وبين الحرية في الرأى والفكر .

علاصت هذه المدارس وكان لها رونق وبهاء أيام أن كانت التربية جارية على سنتها المألوفة في ذلك الحين ، وأيام أن كان الناس قانعين بمقاصدها راضين عن مناهجها ؛ ولكن لما أتى القرن الثامن عشر وأحس الناس فيه نقص أغراضها ، ورأوا أن أساليبها ومناهجها لا تلائم روح العصر ، ذهبت بهجة هذه المدارس وتضاءل ما كان لها من الذكر الرفيع والشهرة الدائمة .

طائفة بورت رويال

بورت رويال اسم دَيْرُ المراهبات في فرنسا ، يبعد عن مدينة فرساي بنحو ثمانية أميال . وقد أسس في القرن الثالث عشر ، ولكنه لم ينل شهرته الفائقة إلا في القرن السابع عشر حين صار مهبطاً لطائفة من رجال الدين هجروا دنيائهم وحبسوا نفوسهم على العلم والعبادة ، فألفوا كثيراً من كتب العلم والأدب ، وأنشؤا عدداً قليلاً من المدارس كان لها أثر جميل في التربية والتعليم . وقد جروا في حياتهم على مبادئ خاصة سنّها لهم زعيمهم القديس « كيران » (١٥٨١ - ١٦٤٣) . وقد أصبحت هذه الطائفة تنسب إلى ذلك الدير الذي كانت تسكنه .

مدارس هذه الطائفة

لم تنل هذه المدارس تلك الشهرة العظيمة من أجل كثرتها أو طول مدتها ، فإنها كانت قليلة العدد قصيرة الأجل لم تعمر أكثر من أربع وعشرين سنة (١٦٣٧ - ١٦٦١) ، بل لأنها بأغراضها الحديثة من التربية وأساليبها السديدة ظهرت على مدارس اليسوعيين ذات المكانة الرفيعة في ذلك الوقت ، وأصبح أثرها في التعليم أعظم وأنبى .

أسس هذه المدارس زعيم الجماعة القديس « كيران » ، وزاول التعليم فيها عدد كبير من أتباعه الذين كان لهم الفضل العظيم على التربية بما كتبوه من المقالات السديدة التي انتشرت في كثير من الأقطار . ومن أشهر تلاميذ هذه الجماعة « لافنتين » (١٦٢١ - ١٦٩٥) و « بسكال » (١٦٢٣ - ١٦٦٢)

وقد سمت هذه الطائفة مدارسها بالمدارس الصغيرة ، لأنها قصرتها على عدد قليل من الأطفال ليستطيع المعلم بعشرته إياهم أن يؤثر فيهم ويكون لهم التكوين الذي يريد . وقد امتازت هذه المدارس بالعناية الفردية التي كان المعلم يبذلها لكل تلميذ من تلاميذه على حدة ، إذ كان من طرائقهم في التربية ألا يترك الطفل ونفسه لحظة واحدة ، وإنما يجب أن يكون تحت مراقبة معلمه وإشرافه في كل لحظة من لحظات طفولته . وقد

انتهجوا هذا المسلك لأنهم كانوا يرون أن التربية الصحيحة هي التي ترمي إلى تقوية جانبي الدين والخلق في الطفل ، وتعمل على تكوين إرادته بوضعه في بيئةٍ صالحةٍ مؤثرة . وقد كان حب الطفل أساس التعليم عندهم وأكبر باعث لهم على العمل . وقد أوضحوا ذلك فيما كتبوه من مقالات التربية كما ظهر بأكل معانيه في أعمالهم .

ومن أصول التعليم عندهم ألا يدرس الطفل إلا ما يستطيع فهمه ، ولذلك أوجبوا أن يبتدئ الطفل عمله بدراسة اللغة الوطنية بدلاً من البداية بدراسة اللغة اللاتينية ، على خلاف ما جرت به العادة منذ ابتداء النهضة الأوروبية وسرت عليه مدارس البروتستانتين واليسوعيين ، فإذا اتقن الطفل دراسة لغته ابتداء اللغة اللاتينية . وطريقهم في تعليم هذه اللغة أن يقللوا ما استطاعوا من تلقين قواعدها ، وأن يستعينوا على دراستها بترجمة التراكيب والأساليب إلى لغتهم الوطنية ، ثم يتبعوا ذلك بمطالعة مختارات واسعة في آدابها . وقد أدخلوا في منهاج الدراسة تهذيب الأخلاق والتاريخ والرياضة على شرط أن تكون الدراسة في هذه الموضوعات غير مطولة . وكانوا يرون أن نجاح التعليم موقوف على إتقان بدايته . وأهم وسائل هذا الإتقان أن تنجبه عناية المربي إلى مادة الدروس أكثر مما تنجبه إلى أساليبها ولغتها ، وأن يعتمد على فهم التلاميذ أكثر مما يعتمد على حفظهم ، وأن يستخدم في التعليم حواس الأطفال استخداماً أكثر مما كان متبعاً في المدارس المعاصرة .